

تفسير البحر المحيط

@ 496 @ وحال أعدائهم ويحتمل أن تكون الواوان فيهما واوي الحال وأسفل طرف في موضع الخبر ، وقرأ زيد بن علي أسفل بالرفع اتسع في الطرف فجعله نفس المبتدأ مجازاً والركب هم الأربعون الذين كانوا يقودون العير غير أبي سفيان ، وقيل الإبل التي كانت تحمل أزواد الكفار وأمتعتهم كانت في موضع يأمنون عليها ، قال الزمخشري : (فإن قلت) : ما فائدة هذا التوقيت وذكر مراكز الفريقين وإن العير كانت أسفل منهم (قلت) : الفائدة فيه الإخبار عن الحالة الدالة على قوة شأن العدو وشوكته وتكامل عدته وتمهد أسباب الغلبة له وضعف شأن المسلمين وشتات أمرهم وإن غلبتهم في مثل هذه الحال ليست إلا صنعاً من الله تعالى ودليل على أن ذلك أمر لم يتيسر إلا بحوله تعالى وقوته وباهر قدرته ، وذلك أن العدو القصوى التي أناخ بها المشركون كان فيها الماء وكانت أرضاً لا بأس بها ولا ماء بالعدو الدنيا وهي خبار تسوخ فيها الأرجل ولا يمشى فيها إلا بتعب ومشقة وكانت العير وراء ظهور العدو مع كثرة عددهم وكانت الحماية دونها تضاعف حميتهم وتشد في المقاتلة عنها نياتهم ولهذا كانت العرب تخرج إلى الحرب بطعنهم وأموالهم لبيعهم الذب عن الحرم والغيرة على الحرم على بذل تجهيداتهم في القتال أن لا يتركوا وراءهم ما يحدثون أنفسهم بالانحياز إليه فيجمع ذلك قلوبهم ويضبط همهم ويوطن نفوسهم على أن لا يبرحوا موطنهم ولا يخلو مراكزهم ويبذلوا منتهى نجدتهم وقصارى شدتهم وفيه تصوير ما دبّر سبحانه من أمر وقعة بدر انتهى ، وهو كلام حسن . وقال ابن عطية : كان الركب ومدبر أمره أبو سفيان قد نكب عن بدر حين نذر بالنبي صلى الله عليه وسلم) وأخذ سيف البحر فهو أسفل بالإضافة إلى أعلى الوادي من حيث يأتي . .

{ وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ لَا خُتْلَافَتْكُمْ فِي الْمِيعَادِ وَلَا كُنْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ * وَيُحْيِيَ مَنْ مَنَ حَيٍّ عَنْ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ } . كان الالتقاء على غير ميعاد . قال مجاهد : أقبل أبو سفيان وأصحابه من الشام تجاراً لم يشعروا بأصحاب بدر ولم يشعر أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم) بكفار قريش ولا كفار قريش بمحمد صلى الله عليه وسلم) وأصحابه حتى التقوا على ماء بدر للسقي كلهم فاقتلوا فعليهم أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم) فأسروهم ، قال الطبري وغيره : المعنى لو تواعدتم على الاجتماع ثم علمتم كثرتهم وقلتكم لخالفتم ولم تجتمعوا معهم وقال معناه الزمخشري ، قال : ولو تواعدتم أنتم وأهل مكة وتواضعتم بينكم على موعد تلتقون فيه للقتال لخاف بعضكم بعضاً فثبطكم قلتكم وكثرتهم عن

الوفاء بالموعد وثبّطهم ما في قلوبهم من تهيب رسول الله صلى الله عليه وسلم) والمسلمين فلم يتفق لكم من التلاقي ما وفقه الله وسببه له ، وقال المهدوي : المعنى لاختلفتكم بالقواطع والعوارض القاطعة بالناس ، قال ابن عطية : وهذا أنبل يعني من قول الطبري وأصح وإيضاحه أن المقصد من الآية تبين نعمة الله وقدرته في قصة بدر وتيسيره ما تيسر من ذلك فالمعنى إذ هيّا الله لكم هذه الحال ولو تواعدتم لها لاختلفتكم إلا مع تيسير الله الذي تمّم ذلك وهذا كما تقول لصاحبك في أمر شاءه الله دون تعب كثير لو ثبتنا على هذا وسعينا فيه لم يتم هكذا انتهى ، وقال الكرمانى ولو تواعدتم أنتم والمشركون للقتال لاختلفتكم في الميعاد أي كانوا لا يصدّون مواعدتكم طلباً لغرتكم والجيلة عليكم ، وقيل المعنى ولو تواعدتم من غير قضاء الله أمر الحرب لاختلفتكم في الميعاد لأنه تعالى إذا لم يقدر أمراً لم يقع انتهى { ولاكن لِيَقْضِيََ اللَّهُ } ولكن تلاقيتهم على غير ميعاد ليقضي الله أمراً من نصر دينه وإعزاز كلمته وكسر الكفار وإذلالهم كان مفعولاً أي موجوداً متحققاً واقعاً وعبر بقوله مفعولاً لتحقق كونه ، قال ابن عطية : ليقضي أمراً قد قدّره في الأزل مفعولاً لكم بشرط وجودكم في وقت وجودكم وذلك كله معلوم عنده ، وقال